مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 26، العدد (2)، ص ص 51 – 81، الرياض (2014م/ 1435هـ)

# اللَّيْلُ في القُرآنِ الكَرِيْمِ «دراسة موضوعية»

**عَبد الله بن صالح الخضيري**

*جامعة أم القرى*

(قدم للنشر في 15/ 05/ 1434هـ؛ وقبل للنشر في 21/ 06/ 1434هـ)

**المستخلص**: يدرس هذا البحث الليل في القرآن الكريم، من حيث التعريف والمفهوم، ثم يبين ما ورد في لفظ الليل من عـد وإحـصاء، وحركـة، وأوصـاف، وأعمال. ويهدف البحث إلى بيان جميع ما يجري في الليل وما يتم فيه. واعتُمد في البحث على المنهج الاستقرائي، وكانت أهم نتائجـه: أن الـشريعة أحاطـت الليـل بمفاهيم الاستمرارية التعبدية. وأن الله خص بعض عباده بمعجزات وكرامات ليلية، كالإسراء والمعراج. ومن أهم توصيات البحث:تطبيق الدراسة على أجـزاء الليل والنهار، ودراسة ما تعلَّق بهما، وإبراز الدراسات التربوية والنفسية لليل، والاستفادة من الألفاظ والآيات القرآنية المتعلِّقة بذلك.

**الكلمات المفتاحية**: الليل، القرآن، تفسير، أعمال، أوصاف، حركة.

---

# The Term “Night” in the Glorious Qur’an: An Objective Study

**Abdullah Salih Al-Khudhairy***

*Om Al-Qura University*

(Received 27/03/2013; accepted for publication 01/05/2013.)

**Abstract:** This research discusses the concept of “night” in the Glorious Qur’an. It defines the concept, providing some related statistics, as well as data on night’s states, motion and works. The research aims to explain what night involves and what occurs during the night. The research follows an inductive approach. Among the most important findings of the research is that Shari’ah associates “night” with concepts of worship continuity, and that Allah has revealed miracles to His worshippers during the night, as in the case of Al-Isra’ (the Prophet’s night journey to Almasjid Alaqsa, in Al-Quds), and Al-Mi’raaj (the Prophet’s ascension to Heaven). The research recommends that studies be conducted on portions of the night and the day, investigating associated issues, with particular reference to psychological and educational dimensions, as well as the lessons that can be drawn from related Qur’anic terms and verses.

**Keywords:** night; Qur’an, Qur’an interpretation; night descriptions; night works; night motion.

---

(*) أستاذ مشارك بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية،
كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى
مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ص.ب (7269)

*(*) Associate Professor, Da'wa & Islamic Culture Department,*
*College of Da'wa & the Fundamentals of Religion, Om Al-Qura University*
*Makkah, Saudi Arabia, p.o box: 7269*

البريد الإلكتروني: *e-mail: abumaad77@hotmail.com*

**مقدمة**

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله – تعالى – من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله – تعالى – فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران:102)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (النساء: 1)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: 70 – 71).

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله – تعالى – وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار..

منَّ الله – تعالى – على خلقه بأن بثَّ آياته في الأنفس والآفاق، ونشر لهم من مخلوقاته ما يتبيَّنون به الدليل إلى الخالق، فكانت الدعوة إلى الخلق جميعاً أن يتبصَّروا من طريقي المشاهدة أو الاستدلال؛ حين يريهم الله تلك الآيات، ويخلق لهم الشواهد والبيِّنات، ففي الأنفس آيات تدل على الله؛ وفي الآفاق علامات تبين وحدانية الله، كما قال – تعالى –: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: 53).

فكان من أعظم آيات الله – تعالى – الليل والنهار، وكان الدليل عليهما من مخلوقاته – تعالى – الشمس، والقمر. ومن هنا تأكَّد وجود ارتباط المعنى بالحس كما ارتبط الليل بالقمر، وارتبط النهار بالشمس المخلوقة؛ كما قال الله – تعالى –: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ (فصلت: 37).

وقد ذكر الله – تعالى – أن الليل سكن ومحل للنوم والراحة، كما جعل النهار وقتاً للمعاش وطلب الرزق وسائر الأعمال، كما قال – سبحانه –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾ (الفرقان: 47).

ومن هنا يتبادر إلى الذهن الثناء المطلق من الله – تعالى – على فئة من الناس؛ استغلوا السكن والظلمة لتصفية قلوبهم وتزكية أعمالهم، كما قال ﷻ: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ (الذاريات: 17 – 18).

وقد جاءت هذه الدراسة لتكشف أن في الليل صورا وأعمالاً كثيرة ذكرها القرآن الكريم في ضوء حركة الليل، وذكر أجزائه، ووصف العاملين فيه مدحا أو ذمّاً،

وتفضيل بعض الليالي على بعض الأيام في نهارها؛ كما ورد ذكر الليل في القرآن الكريم بصُورٍ بيانيةٍ وبلاغيَّةٍ جميلةٍ يحسُنُ ذكرها، والتنبيهُ عليها، والاستفَادةُ من مقاصِدِهَا.

وهذا ما سيحاول الباحث إبرازه من خلال جمع وتحليل الآيات المتعلقة بالليل، ودراستها دراسة موضوعيه؛ لعلها تكون إضافة جديدة في مجال التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، والخروج بنتائج تكشف قيمة اللفظ القرآني في تجدد معانيه، وتنوّعها فيما يتعلق بحركة الليل أوصافاً وأعمالاً.

وقد قمت بتتبع وجمع الآيات المتعلقة بلفظ «الليل»؛ اسماً – مفرداً أو جمعاً – ، أو وصفاً، أو حالاً، ومن ثمَّ قمت بالرجوع إلى كتب التفسير والحديث واللغة فيما يخص الموضوع، وجعلت عنوانه: (**اللَّيْلُ في القُرآنِ الكَرِيْمِ – دراسة موضوعية –**)، وقسمت الموضوع إلى مقدِّمةٍ ومباحث؛ كالتالي:

المقدِّمَة: وتشمل؛ مشكلة البحث، وحدوده، ومنهجه، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، وإجراءات البحث. وهي كالتالي:

**مشكلة البحث:**

يمكن تحديد مشكلة البحث من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية:

– مَا مَعْنَى كلمة الليل؛ لغةً، واصطلاحا؟

– ما الذي تضمَّنه ذكر اللَّيْلُ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ من العَدِّ والأجزاء وَالإِحْصَاءِ؟

– ما حركة الليل في القرآن الكريم؟

– مَا أَوْصَافُ اللَّيْلِ الوَارِدِ ذِكْرُهَا فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ؟

– مَا الأَعْمَالُ الوَارِدِ ذِكْرُهَا – فِيْ اللَّيْلِ – فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ؟

**حدود البحث:**

ستقتصر الدراسة في هذا البحث على تناول لفظ الليل في القرآن الكريم دون أي لفظ آخر.

**منهج البحث:**

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي للآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الليل.

**أهداف البحث:**

يهدف البحث إلى تحقيق الآتي:

1 – إيضاح مَعْنَى كلمة الليل؛ لغةً، واصطلاحا؟

2 – إبراز ما تضمَّنه ذكر اللَّيْل فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ من العَدِّ والأجزاء وَالإِحْصَاءِ؟

3 – بيان حركة الليل في القرآن الكريم؟

4 – ذكر أبرز أَوْصَاف اللَّيْلِ الوَارِدِ ذِكْرُهَا فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ؟

5 – إظهار الأَعْمَال الوَارِدِ ذِكْرُهَا – فِيْ اللَّيْلِ – فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ؟

**الدراسات السابقة:**

لم أقف – في حدود اطلاعي – على دراسة سابقة، تناولت الموضوع – قيد البحث – بذات العنوان، أو عرض واستقراء الآيات.

**إِجْرَاءاتُ البَحْثِ:**

وقد اتبعتُ في إجراءات البحث وخطواته ما يلي:

1 – قمتُ بقراءة القرآن الكريم عدة مراتٍ، حصَرْتُ فيها المواضع التي ذكر فيها لفظ الليل.

2 – قرأتُ تفسير تلك الآيات المتعلقة بالليل، وما تضمنته من هِدَاياتٍ ودلالاتٍ.

3 – اعتمدت التفسير الموضوعي للآيات، مع الاهتمام بتحليل الآية في موضِعِها.

4 – نظرتُ في السنة النبوية وما تناولته فِيما يتعَلَّقُ بالمَوْضوعِ.

5 – قمت بعزو كل آية، ورقمها إلى حيث موضعها من القرآن الكريم.

6 – قمت بتخريج الأحاديث التي تمرّ في صلب البحث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بهما؛ وذلك بذكر رقم الحديث فقط.

7 – ذَكَرْتُ في النهاية ما توصل له البحث من نتائج وتوصياتٍ.

8 – ذكرت فهرساً للمصادر والمراجع.

وبعد ذلك المباحث الرئيسيَّة التي تبرز ترابط الموضوع وتكامله؛ ليخرج بالفائدة المرجوَّة، وهي كالتالي:

- **المبحث الأول**: تعريف كلمة «الليل» ومفهومها؛ لغةً، واصطلاحا.
- **المبحث الثاني**: أبرز أوصاف الليل الوارد ذكرها في القرآن الكريم.
- **المبحث الثالث**: أبرز الأعمال الوارد ذكرها – في الليل – في القرآن الكريم.
- **المبحث الرابع**: حركة الليل في القرآن الكريم.
- **المبحث الخامس**: الليل في القرآن الكريم بين العدِّ والإحصاء.
- **الخاتمة وأهم النتائج**: وفيها إجمالٌ لما تم عرضه، وتحديد لما توصَّل إليه البحث من نتائج.

هذا، وأسأل الله أن ينفعني بما كتبت، وأن يغفر لي تقصيري وزللي، فجهدٌ بشريٌّ ذلك الذي قمت به، وقد حرصت فيه على التمام، ومن الله وحده أستمدُّ العون، وأسأله التوفيق، وهو الموفِّقُ والمستعان.

***

## المبحث الأول

## تعريف كلمة «الليل» ومفهومها؛ لغةً، واصطلاحا

أما تعريف الليل لغةً، فقد جاء في معاجم اللغة أن لفظ «الليل» واحدٌ بمعنى الجمع، وهو: «عقيب النهار. ومَبْدَؤُه من غروب الشمس»[1]، وهو اسمٌ لكلِّ

(1) مختار الصحاح ص (537)، ولسان العرب (11/ 608)،=

ليلةٍ[2]، ومنه قول الله – تعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾... وتَمَامُ الآيَةِ: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (البقرة: 187)، فحلُّ الجِمَاعِ ووقتُ الإمساك في ليَالِ الصيام جمِيْعِهَا، لا فِيْ واحدَةٍ مِنْهَا، والليل: ضِدُّ النهَار[3].

وأما تعريف الليل اصطِلاحاً وحدُّه فهو: «مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ»[4]، والأصل في اليوم: اجتماع ليله ونهاره، فإذا أفردت أحدهما من الآخر قلت:ليلةٌ ويوم[5]. ومن هنا جاء الوحي القرآني في التفريق بينهما في قول الله – تعالى –: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (الحاقة:6 – 7). والأصل في الوجود: الليل قبل النهار؛ ولذا جاء في أغلب آيات القرآن مقدَّما على النهار، ولعل هذا استنباط ابن عباس ﷺ: (خلق الليل قبل النهار، ثم قال: كانتا رتقا ففتقناهما)[6]؛ من قول الله – تعالى –: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء:30)، يقول الرازي: «الله – تعالى – قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار في كثير من المواضع.. إذ في الأزل لم يكن نهار ولا نور»[7]. وهي فائدة لطيفة أشار إليها كثيرٌ من المفسرين[8].

=والقاموس المحيط ص (1364).

(2) مختار الصحاح ص (537)، ولسان العرب (11/ 608)، والقاموس المحيط ص (1364).

(3) المراجع السابقة.

(4) الجامع لأحكام القرآن (2/ 193)، و(19/ 34).

(5) لسان العرب (11/ 607).

(6) أخرجه الطبري في جامع البيان في تفسيره (16/ 258).

(7) التفسير الكبير (12/ 286).

(8) جامع البيان (16/ 258)، والتحرير والتنوير (17/ 55).

(9) الكشاف (1/ 280)، والتحرير والتنوير (9/ 86).

***

## المَبْحَثُ الثَّانِي

## اللَّيْلُ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ بَيْنَ الأَجْزَاءِ وَالعَدِّ وَالإِحْصَاءِ

ورد في القرآن الكريم لفظ اللَّيل مجموعا ومفرداً، معرَّفاً ومنكَّراً، محصُوراً بعدَدٍ وغيْرَ محصُوْرٍ، وورد فيه – أيضا – ليالٍ مجموعة أو مفَرَّقَة، وفيه بيان طُول الليالي وقصَرِهَا، وأجزاء الليلة الواحدة. وهذه الليالي المعدودة في القرآن الكريم إنما جاءت في سياقاتٍ بديعةٍ؛ لتؤكد القيمة المعنوية في المعدودات من الليالي؛ بل إن الليلة الواحدة غير المعدودة جاءت متَّسِقة المعنى في إثباتِ الدلالة المقصودة من عَدِّ الليالي والأيام، على أن الغالب في الكلام العربي التوقيت بالليالي، ويريدون أنها بأيامها؛ لأن الأشهر العربية تبتدأ بالليالي؛ إذ هي منوطة بظهور الأهلة[9]. والفائدة العظيمةُ في ذكر أجزاء الليل وآنائه وأطرافه، ليعلم – من خلال ذلك – القيمة التعبُّدِيَّة لأهل الإيمان الذين أحيوا الليل بجميع أطرافه بأنواع

العبوديَّة لله ﷻ، كما قال الله – تعالى – في وصف أولئك المؤمنين: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (آل عمران:113)، وقول الحقِّ ﷻ: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه:130)، وقول الله ﷻ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر:9)، وذلك التنوُّع في ذكر أجزاء الليل في القرآن الكريم، هي هدايات لمن يعرف قيمة الليل – كما بينته تلك الآيات – وأنه طريق الخُلَّص من المؤمنين، جعلنا الله منهم.

وفي هذا المبحث سأعرض لموضوع اللَّيْلِ فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ بَيْنَ الأَجْزَاءِ وَالعَدِّ وَالإِحْصَاءِ؛ على النحو الآتي:

**أولاً: الشفع والوتر:**

من المهم في هذا الباب بيان ذكر الله ﷻ الشفع والوتر في آيتين تتحدثان عن الليالي، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (الفجر:1 – 4)، فالشفع: خلاف الوتر، وهو الزوج[10]، والوتر: الفرد، أو ما لم يتشفع من العدد[11].

والمقصُود من ذلك: أن العدد منه ما هو شفع، ومنه ما هو وتر[12]. واستبعد الطبري تخصيص الشفع والوتر في الآية بمعنى معينٍ، فقال: «إن الله – تعالى ذكره – أقسم بالشفع والوتر، ولم يخصص نوعا من الشفع، ولا من الوتر دون نوع بخبر ولا عقل»[13]. اهـ.

**ثانياً: اللَّيْلَةُ المُجَزَّأَةُ:**

والليل – بأجزائه وآنائه – مما تناوله القرآن الكريم بتقدير الله – تعالى – الليل والنهار في ذكر مسميات أجزاء الليل للقَائِمِيْنَ وَالمصَلِّيْنَ، وهي المذكورة في سورة المزمل من أولها، ومن آخرها في قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المزمل:20)، بين

(10) لسان العرب (8/ 183).

(11) لسان العرب (5/ 273)، ومن معاني الوتر، دلالته على نقص الشيء، كما قال – تعالى – : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد: 35)، والمعنى: لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً؛ فكأن الوتر بهذا ناقص عن الشفع.

(12) المرجع السابق (8/ 183).

(13) جامع البيان (24/ 355).

الليل كله وناشئتهُ وثلثَيْه و، نصْفَهُ وثُلُثَهُ كما سيأتي:

1 – **نَاشِئَةَ اللَّيْلِ**: في قول الله – تعالى –: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ﴾ (المزمل:6)، يقول ابن كثير: والغرض أن ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات[14]، وهذه الناشئة تقع مع أجزاء الليل كلِّه؛ فتطلق على الثلث والثلثين والنصف، كما يصح إطلاقها على أول الليل وأوسطه وآخره.

2 – **أَغْلَبُ اللَّيْلِ**: في الأمر للنبي الكريم – عليه الصلاة والسلام – بقيام الليل أول بعثته في قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (المزمل:1 – 2)، ويرى ابن كثير: أن المقصود بالأغلب هو النصف استدلالاً بالآيتين بعدها: ﴿ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ ﴾ (المزمل:3 – 4)[15]، ولكن اجتهاد ابن عمر ﷺ في قيام أغلب الليل يؤكد أن القيام بحسب الحال، ما عدا المنهي عنه فقط، وهو قيام الليل كله، وقد روى البخاري عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَبْدِالله ﷺ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا، فَأَقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي، فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ، وَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِّ مِنْ النَّارِ، قَالَ فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ، فَقَالَ لِي: لَمْ تُرَعْ. فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَقَالَ: (نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِّ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ). فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا[16].

3 – **ثُلثا اللَّيْلِ**: وقد وصف الله – تعالى – قيام النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين بالزمن المقدَّرِ بالثلُثَين أو ما يقاربه من جزءٍ في قول الله – تعالى –: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ ﴾ (المزمل:20).

4 – **نِصْفُ اللَّيْلِ**: وهذا الجزء من الليل ذكره الله – تعالى – في موضعين:

أ/ في الأمر للنبي – عليه الصلاة والسلام – بقيام الليل بقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ (المزمل:1 – 4).

ب/ في وصف النبي ﷺ بقيامه الليل ومن معه من المؤمنين في قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ ﴾ (المزمل:20).

5 – **ثُلُثُ اللَّيْلِ**: قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ (المزمل:20).

ولعل في الأمر بطول القيام للنبي ﷺ بقول الله – تعالى –: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (المزمل:2)، وذكر الزيادة

(14) ابن كثير (4/ 435).

(15) المرجع السابق.

(16) البخاري (1070).

والنقص في قيام نصف الليل ما يوحي بذكر المنصوص عليه في الآيات الكريمة، فالزيادة على النصف تحمل معنى الثلثين، والنقص من النصف تحمل معنى الثلث، وكلٌّ من قيام الثلثين والثلث قد جاءت الآيات الكريمة بذكرهما، ويبقى المجال مفتوحاً بين الزيادة والنقصان إما لعامة الليل أو أقلِّه، ولعل هذا مما يستفاد من الألفاظ الواردة في هذا الباب حيث وردت الألفاظ «قم الليل» و«أدنى» و«انقص» و«زد» و«الله يقدر» و«لن تحصوه» و«ما تيسر» وكلها ألفاظ تدلُّ على المقاربة والإحسان في العمل كُلٌّ بحسب استطاعته وقدْرَتِهِ، وقد استمر وواظب رسول الله ﷺ على قيام الليل حتى تتفطر قدماه [17]، وهو الوصف اللائق بالمؤمنين في قول الحق ﷻ: ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات:17 – 18).

**ثالثاً: اللَّيَالي غَيْرِ المَعْدُوْدَةِ:**

1 – **لَيْلَةُ الصِّيَامِ**: وقد ذكر الله هذه الليلة في قوله ﷻ: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ (البقرة:187)، والمقصود: ليَالِ الصيام جمِيْعِهَا، لا فِيْ واحدَةٍ مِنْهَا[18]. وليست كذلك محصورةً في رمضان وحده فقط، وإلا فالشهر معدود، وإنما يدخل في ذلك صيام النافلة والنذور والكفَّارات، فالحِلُّ والإِبَاحَةُ فِي كُلٍّ، فليلة الصيام – كما يقول الألوسي –: الليلة التي يصبح منها صائماً[19].

2 – **المَسِيْرُ فِي اللَّيْلِ بَيْنَ قُرَى سَبَأ**: وهذا المسير ذكره الله ﷻ في أهل سبأ في قول الحق – تقدَّس اسمُهُ –: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ (سبأ:18). وظاهر اللفظ لم يعين هذه الليالي، ولم يذكر عددها بالنسبَةِ إلَيْنَا، وهي لأهل سبأ معلومة ومعروفة؛ لأن الله قدَّر ورتَّب السير لهم فيها لزيادة المنَّةِ منه ﷻ عليْهِم[20].

**رابعاً: الليالي المعدودَةِ:**

1 – **ليلةُ القَدْرِ**: وهذا في قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (القدر:1)، وهي ليلة واحدةٌ معروفة في السنَة في شهر رمضان[21]؛ لمن قال: إنها ليلةُ سبع وعشرين.

2 – **ثَلاثُ لَيَالٍ**: وهذه الليالي المعلومة هي ما ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم:10). وهذه الليالي معلومة العدد بكونها ثلاثاً متتابعات من لحظة خروجه إلى قومه، وتلك العلامة أن لا يكلم الناس ثلاث ليال، وهو سوي صحيح، لا علة به من خرس ولا

(17) البخاري (4557)، ومسلم (2820).

(18) لسان العرب (11/ 608 – 609).

(19) روح المعاني (2/ 97).

(20) جامع البيان (19/ 260)، والكشاف (3/ 286)، وفتح القدير (4/ 368).

(21) جامع البيان (24/ 542)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 140) و(4/ 432).

مرض يمنعه من الكلام[22]. يتأكد هذا المعنى بها في سورة آل عمران في قول الله ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ (آل عمران:41)، ليتأكد مفهوم الليالي الثلاث بنهارها ووصف الله – تعالى – لها بـ: «سَوِيّاً» يؤكد أنها كاملة[23].

3 – **سَبْعُ لَيَالٍ**: وهذه الليالي السبع المعلومة؛ ذكرها الله – تبارك وتعالى – في عدد أيام العذاب الذي أنزله على قوم عاد في قول الله ﷻ: ﴿ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴾ (الحاقة:6 – 7)، والحُسُوْم: هي الكاملة المتتابعة[24].

4 – **عَشْرُ لَيَالٍ**: ومن الليالي المعدودة المعلومة الوارد ذكرها في القرآن الكريم «العَشْرُ»؛ وذلك في موضعين:

أولهما: عشر ذي الحجة[25]، في قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴾ (الفجر:1 – 2)، ونسب الطبري إجماع الحجة من أهل التأويل على أنها عشر ذي الحجة[26]. وتقدير الآية وليالي أيامٍ عشر، على حذف الموصوف المعدود[27]. وقد جاء اللفظ «ليالٍ» منكَّراً من بين المقسم بها؛ يقول الزمخشري: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي، العشر بعض منها، ولم تعرَّف بلام العهد – كذلك – ؛ لأنها ليال معلومة معهودة[28]. وفيه حديثٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَشْرَ عَشْرُ الْأَضْحَى)[29].

ثانيهما: العَشْرُ المتمِّمَة في قصة موْسَى عليه السلام في قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ ﴾ (الأعراف:142)، قيل: إنها عشر ذي الحجة، وعليه أغلب المفسِّرين[30]، وزيادة العشْرِ إنما

(22) الكشاف (2/ 504).

(23) المرجع السابق، والتحرير والتنوير (16/ 73).

(24) جامع البيان (23/ 211)، والكشاف (4/ 150)، ومحاسن التأويل (16/ 272)، والتحرير والتنوير (29/ 117).

(25) جامع البيان (24/ 345)، والكشاف (4/ 249)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 506)، وروح المعاني (30/ 215)، والتحرير والتنوير (30/ 313).

(26) جامع البيان (24/ 348).

(27) روح المعاني (30/ 217)، والتحرير والتنوير (30/ 313).

(28) الكشَّاف (4/ 249). وقد أشار الزمخشري قائلاً: لو أثبتها بلفظ «الليالي» المعرَّفَةِ لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة. اهـ، وينظر: التحرير والتنوير (30/ 313).

(29) أحمد (14511)، والنسائي في «السنن الكبرى» (4086)، (11907)، والطبري (24/ 348)، وقال ابن كثير في تفسيره: (وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة، والله أعلم). اهـ.

(30) جامع البيان (10/ 414)، ومعاني القرآن (3/ 74)، والكشاف (2/ 111)، وذكر ابن كثير (2/ 233): أن ذلك رأي أكثر المفسِّرين.

كانت لحكمة عظيمة؛ لكون مدة الثلاثين بدونها غير بالغة أقصى الكمال[31].

5 – **ثَلَاثُوْنَ لَيْلَة**: وهذه الثلاثون ليلة المذكورة في القرآن؛ وهي الممهدة لبدء وحْيِ الشَّرِيعة لموسى عليه السلام[32]، وهي الموعد الأوَّلُ للقاء موسى عليه السلام بربِّه عز وجل ومناجاته وعبوديته؛ في قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:142)، وهذه المُدَّة كانت تيسيراً على موسى عليه السلام وكانت كافيةً في مناجاته لله؛ فلمَّا تعلَّقت نفسه بالعبودية والمناجاة؛ زاده الله القَدْر الذي يحتمله من فضْلِ الله وبَرَكَتِه، فزاده عشر ليال[33].

6 – **أربعون ليلة**: وقد ذكر الله – تبارك وتعالى – هذه الأربعين ليلةً التي قضاها موسى – عليه الصلاة والسلام – في عبودية خالصة لله ومناجاة له؛ في موضعين؛ الأوَّل: في قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (البقرة:51)، والموضع الثاني: في قول الحق – جلَّ فِيْ عُلاَهُ – : ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:142). ولمَّا تمت الأربعون ليلة تهيأت نفسُ موسى للقاء ربِّه ومناجاته، وإنما خصَّ الله – تبارك وتعالى – الليل بالذكر، مع أن هذه الليالي بنهارها؛ لأن الوعد من الله – تعالى – كان لأجل أن ينقطع موسى عليه السلام عن الناس، ويتفرغ لله وحده منقطعاً عن كل شيء سوى الله ولقائه؛ والنفس في الليل أكثر تجرُّداً للكمالاتِ النَّفْسِيَّة[34]. وأبعد عن الانشغالات الذهنية؛ ومن هنا أوجب الله على النبي الكريم – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – قيام الليل، وصلاة التهجُّد.

***

## المبحث الثَّالِث

## حركة الليل في القرآن الكريم

في الحديث عن الليل يرتبط الذهن بأوصاف الليل وسكونه وهدوئه إلا أن القرآن الكريم أثبت حركة الليل، وذكر تفاصيل أجزائه، وأن حركة القمر – وهو دليل الليل – في استمرار مع الشمس، وأن لكل من الشمس والقمر فلكا يسبح ويسير فيه، فلن يسبق الليل النهار، ولا النهار سابق الليل. وفي هذا المبحث أجتهد أن أبين حركة الليل من لحظة دخوله، وحتى إدباره بإسفار الصبح.

(31) التحرير والتنوير (9/ 87).

(32) ينظر: المرجع السابق (9/ 85).

(33) المرجع السابق (9/ 85).

(34) المرجع السابق (9/ 86)، وتيسير الكريم المنان (2/ 151).

والليل – بذكر أوله وأوسطهِ وآخره وجميع حركته – بينه القرآن الكريم، فأول دخول الليل بإقباله ذكره الله – تعالى – بعدة ألفاظ وكذلك أوسطه، وآخره.مع بيان القرآن الكريم إلى ثبات مسار الليل والقمر، وعدم تداخلهما مع مسار النهار والشمس في قول الله – تعالى – : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:38 – 40)، فكل واحد منهما يجيء وقته، ولا يسبق صاحبه إلى أن يجمع اللهُ بين الشمس والقمر يوم القيامة[35].

بل إن من أعظم المنن من الله – تعالى – حركة الليل والنهار وتعاقبهما وتقلُّبهما؛ يبيِّنُ ذلك قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص:71 – 72)، فالليل والنهار آيتان يحتاجهما الخلق، ويستقيمُ بِهِمَا الكون، فلا غنى عن أحدِهِمَا بالآخر، ولا غنى للخلق كذلك عن حركتهما وتعاقبهما؛ فلكلٍّ من الليل والنهار خصائصه وأعماله الغالبة لأحدهما على الآخر، في مقابل إيضاح الحكم العظيمة والمنن الربانية في تجدُّد حركة الحياة والكون على مستوى واحد، ومسافة واحدة تقتضي تقسيم الزمن بين الليل والنهار، وتحديد مسارهما لسائر المخلوقات. وقد جعل النهار محلاً للعمل والمعاش، وجعل الليل للنوم والسكن؛ إلا أن الله – تعالى – جعل أحدهما خلفةً عن الآخر بحسب تعاقب الناس فيهما؛ بل إن النص القرآني الكريم أثبت استواءهما في السكون والحركة في علم الله وإحاطته؛ بقوله – تبارك وتعالى –: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام:13).

وتبقى الإشارة ههنا إلى وصف القرآن الكريم لليل بالممحوة آيته، وقد ورد ذكرها في موضع واحد، وهو قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ (الإسراء:12). وهذه صفةٌ لحركة ذهاب الليل. ومحو الليل: انعدام النور وبقاء الظلمة؛ ودلالة الآية لأن النور يُظْهر الأشياء، والظلمة لا تظهر فيها الأشياء، وطمس نور الليل بطبعه؛ إذ إن القمر مطموس لا نور في جرمه، ولكنه يكتسب الإنارة بانعكاس شعاع الشمس على كرته[36]. وأثر المحو؛ ذلك السواد الباقي في الليل[37]،

(35) محاسن التأويل (14/ 74).

(36) التحرير والتنوير (15/ 44).

(37) جامع البيان (14/ 515 – 517)، وتفسير القرآن العظيم=

فالمقصود به – كما يقول الشوكاني – : «أنه – سبحانه – خلقها ممحوة الضوء مطموسة، وليس المراد أنه محاها بعد أن لم تكن كذلك»[38].

ومن هنا لا بدَّ من بيان الحركة الانسيابية والنقلة بين الليل والنهار، وهي في التعبير القرآني البديع في إيلاج الليل بالنهار، وإيلاج النهار بالليل[39]، كما قال – تعالى – : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الحج:61)، إلا أن هناك حالات ذكرها الله ﷻ في حركة الليل يقلب الله بها الليل والنَّهار؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور:44)، ومن ذلك ما يلي:

1 – **إقبَالُ اللَّيْلِ وأوَّله**: فأول حركة الليل هي إقباله ودنوُّه، وعبّر عنه بالألفاظ الآتية:

أ/ «**يَغْشَى**» وحركة الليلِ هذه وردَتْ في قول الحق ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف:54)، وقول الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ (الليل:1)، وقول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ (الشمس:1 – 4). فالقمر يتبع الشمس هنا، والغشي: التغطية[40]. فالليل يغشى النهار بظلمته، فيذهب بضوء النهار ونضرته[41]. والقمر يتبع الشمس في أحوال كثيرة، منها استهلاله، فالهلال يظهر للناظرين عقب غروب الشمس، ثم يبقى كذلك ثلاث ليال، وهو أيضا يتلو الشمس حين يقارب الابتدار وحين يصير بدرا، فإذا صار بدرا صار تلوه الشمس حقيقة؛ لأنه يظهر عندما تغرب الشمس، وقريبا من غروبها قبله أو بعده، وهو أيضا يضيء في أكثر ليالي الشهر، جعله الله عوضا عن الشمس في عدة ليال في الإنارة.. وليس الليل بمغط للشمس على الحقيقة، ولكنه مسبب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب، وهو زمن لذلك الغشي[42]. اهـ.

ب/ «**نَسْلَخ**» وهو لفظ قرآنيٌّ يؤكِّد سرعة حركة الليل في دخوله، وسرعة النهار في ذهابه، في قول الله ﷻ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (يس:37)، فيسلخ الله من الليل النهار، ويأتي بالظلمة ويذهب بالنهار[43]. واستَدَلَّ لِهَذَا ابْنُ كَثِيْر بآخِرِ الآيَةِ:

---

=(3/ 258)، وفتح القدير (3/ 243).

(38) فتح القدير، للشوكاني (3/ 240).

(39) في أربعة مواضع في القرآن الكريم، في سورة الحج، آية رقم (61)، وسورة لقمان، آية رقم (29)، وسورة فاطر، آية رقم (13)، وسورة الحديد، آية رقم (6).

(40) جامع البيان (24/ 455).

(41) المرجع السابق، وتفسير القرآن العظيم (4/ 516).

(42) التحرير والتنوير (30/ 366 – 368).

(43) جامع البيان (19/ 434)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 297)، ومحاسن التأويل (14/ 72).

﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾، وحَدِيثِ النَّبيِّ ﷺ[44]؛ بِقَوْلِه: (إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ)[45].

2 – **وَسَطُ اللَّيْلِ**:كما عبر اللفظ القرآني عن حركة أَوْسَطِ اللَّيْلِ بِالكَلِمَاتِ الآتيةِ:

**أ/ «غَسَق»**: وقد جاء وصف الليل وإقباله بالغَسَقِ في موضعين، وهو وصفٌ دالٌ على الحركة، في قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (الإسراء:78)، وقول الله – سبحانه – : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ (الفلق:3)، وغَسَقُ اللَّيْلِ: هو إقباله ودنوه بظلامه[46]. وقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: (يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب)[47]. ويرى ابن منظور أن الغاسق هو: البارد، وتسمية الليل بالغاسق: لأنه أبرد من النهار[48]. وعلى كلٍّ فالليل مظلمٌ، وهو أبرد من النهار، والشمس آية النهار، والقمر آية الليل – كما يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما –[49]، وهما مصدر البرد والحر.

**ب/ «سَجَى»**: في قول الباري – سبحانه –: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (الضحى:2)، والمراد به: إذا أقبل الليل بظلامه[50]. وقيل: إذا أَدْبَرَ[51]. وقيل: إذا جاء وقت قِيَامِ اللَّيْلِ. واختاره ابنُ عَاشُوْر[52]، بيْنَما يرجح ابن جرير، وتبِعَه كثيرٌ من المفسِّرين أن المرَادَ بِهِ: إذا سَكَنَ اللَّيْلُ بِأَهْلِهِ، وَثَبَتَ بِظَلاَمِهِ، وادْلَهَمَّ[53].

**ج/ «وَسَقَ»** وذلك اللفظ الحركِيُّ يعني ما اجتمع في وسط الليل؛ في قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ (الانشقاق:17)، والوسَقُ: الجمعُ[54]، وما جمع الليل مما سكن وهدأ فيه من ذي روح كان يطير، أو مما يدبُّ نهاراً[55].

---

(44) تفسير القرآن العظيم (4/ 297).

(45) البخاري (1954)، ومسلم (1100).

(46) جامع البيان (24/ 746)، ومعاني القرآن (4/ 182)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 578)، ولسان العرب (10/ 288)، والنهاية في غريب الحديث (3/ 366 – 367).

(47) أحمد (26043)، والنسائي (10138)، وصححه الألباني (372) سلسلة الأحاديث الصحيحة.

(48) لسان العرب (10/ 289).

(49) جامع البيان (14/ 517).

(50) المرجع السابق (24/ 482)، والكشاف (4/ 263)، ومعالم التنزيل (8/ 454)، والتحرير والتنوير (30/ 395).

(51) جامع البيان (24/ 482)، ومعالم التنزيل (8/ 454).

(52) التحرير والتنوير (30/ 395).

(53) جامع البيان (24/ 483)، والكشاف (4/ 263)، ومعالم التنزيل (8/ 454)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 524)، وروح المعاني (30/ 277).

(54) جامع البيان (24/ 245)، ومعالم التنزيل (8/ 375)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 491)، وروح المعاني (30/ 146).

(55) روح المعاني (30/ 146).

3 – **آخِرِ اللَّيْلِ**: وَقَدْ عبر اللفظ القرآني عن حركة آخِرِ اللَّيْلِ بِالْمُفْرَدَاتِ التَّالِيَةِ:

أ/ «**عَسْعَسَ**»، وقد أتى هذا اللفظ مبيِّناً حركة الليل؛ في قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ (التكوير:17)، وهذه المفردة من الأضداد، فتأتي بمعنى إقبال الليل، وتأتي بمعنى إدباره[56]. ورجح كثيرٌ من المفسِّرين معنى «عسعس» بأنه أدبر وولى[57]. وذلك أخذاً من قول الله ﷻ: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:18)، فَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْقَسَمَ بِاللَّيْلِ مُدبِرًا، وبِالنَّهَارِ مُقْبِلًا، والمعنيان وإن كان ضدَّين إلا أنهما يرجعان إلى شيء واحد، وهو إقبال الظلام في أوله وإدباره في آخره ووجود الظلام في كلٍّ منهما[58]. وقد عرض ابن كثير أن المقصود بـــ «عسعس»: هي إقبال الليل مستدلاً لذلك بقوله: «وعندي أن المراد بقوله: (عسعس) إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار لكن الإقبال هاهنا أنسب، كأنه أقسم – تعالى – بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كَمَا قَالَ – تعالَى – : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ (الليل:1 – 2)، وقَالَ – سبحانه –: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (الضحى:1 – 2)، وَقَالَ – تَعَالَى –: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ (الْأَنْعَامِ:96)، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ»[59]. اهـ. ولكنه صحح في الأخير المعنيين لاحتمالهما، ورأيه في معنى إقبال الليل مسدَّدٌ، ولكن تردُّه الرواية عن عليٍّ عند أَبِيْ دَاوُدَ الطَّيَالِسِي عَنْ أَبِيْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا عَلِيٌّ ﷺ حِينَ ثَوَّبَ الْمُثَوِّبُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُونَ عَنِ الْوِتْرِ؟: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:17 – 18)؟ هَذَا حِينَ أَدْبَرَ[60]. لعلَّها ترجح القول بأنه إدبَار الليل.

ب/ «**يَسْرِ**»: وهذه المفردة دَلَّت علىَ ذَهَاب الليل وانتِهَائِه، في قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (الفجر:4)، والمراد به في الآية: إذا سار وذهب عَامَّتُه[61]. وهذا اللفظ القرآني الرائع شبَّه فيه القرآنُ تقَضِّيَ اللَّيْلِ في

(56) لسان العرب (6/ 139)، والنهاية في غريب الحديث (3/ 236).

(57) جامع البيان (24/ 159)، والكشاف (4/ 224)، ومعالم التنزيل (8/ 349)، وروح المعاني (30/ 102)، وقد ادعى ابن منظور في لسان العرب (6/ 139) إجماع المفسِّرِيْنَ وهو غير صحيح – كما تبيَّن –.

(58) لسان العرب (6/ 139)، والتحرير والتنوير (30/ 154).

(59) تفسير القرآن العظيم (4/ 480).

(60) حسَّنه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (4/ 480)، وعزاه لأبي داود الطيالسي – ولم أجده فيما بين يدي من النسخة المطبوعة لمسند أبي داود؛ بتحقيق د/ محمد التركي –.

(61) جامع البيان (24/ 356)، والكشاف (4/ 249)، ومعالم التنزيل (8/ 417)، وروح المعاني (30/ 218 – 219)، والتحرير والتنوير (30/ 315)، وخالف ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (4/ 508) في ذلك فقال: وقد يقال إن هذا أنسب أنه إذا أقبل.

ظلامه بسير السائر في الظلام، وهو السُّرى[62]. فكأن الليل يسير مثل سُرى النَّاس فيهِ.

ج/ «**أَدْبَرَ**» وهذه المفردة واضحة في حركة الليل وذهابِهِ؛ في قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴾ (المدثر:33)، إِذَا وَلَّى ذاهِباً[63]. وأرى أن هذا المعنى في ذهاب الليل عليه أكثر رأي المفسرين، وأهل اللغة.

***

## المَبْحَثُ الرَّابع

## أَوْصَافُ اللَّيْلِ الوَارِدِ ذِكْرُهَا فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْمِ

وصَف الله – تبارك وتعَالى – الليلَ بأوْصَافٍ متنَوِّعةٍ، وقد جاءَت تلكَ الأَوْصاف بين الجُمَلِ الاسميَّة والجمل الفعْلِيَّة، ولعلِّي أعرِضُ أبْرَز أوصافِ الليل التي جاء ذكرها في القرآن الكريم مع لفظ الليل من ذلك:

1 – **السَّكَن**: وقد تكرر وصف الليل بالسكن في سبعِ آيات[64]، منها قول الله – تعالى –: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (الأنعام:96)، والسَّكَن: ما تسكن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب[65]. والمقصود بالسَّكن في الآية: أن يكون الليل محلاً للسكون والراحة[66]. وهو وصف مجازي[67]، في معرِض ذكر نعم الله – تعالى – ومننه وفضله، وقد بيَّن الله – تعالى – ذلك في سورة القصص بقوله – تعالى –: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (القصص:73)، فإن رحمة الله بالناس حقيقة كلية لها تحقق في وجود أنواعها وآحادها العديدة؛ فتحقيق تلك الصفة للإنسان من رحمة الله – تعالى – ولطفه.

2 – **اللبَاس**: وقد ذُكِرَ هذا الوصف في القرآن في موضعين[68]: في قول الله – تعالى –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾ (الفرقان:47)، وقول الله – تعالى –: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴾ (النبأ:10)، والمقصود به: أنه لما جعل الليل يغطي جميع من في الأرض بظلامه صَارَ لباساً لهم، يسترهم كما يستر اللباس عورة صاحبه، وربما انتفعوا بلباس الليل كهروب الأسير المسلم من الكفار في ظلام الليل، وفي

(62) روح المعاني (30/ 218)، التحرير والتنوير (30/ 315).

(63) جامع البيان (23/ 442)، والكشاف (4/ 186)، ومعالم التنزيل (8/ 272)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 446)، وروح المعاني (29/ 224)، والتحرير والتنوير (29/ 322).

(64) سورة الأنعام، آية رقم (13) وهي بصيغة الفعل، وبقية الآيات بصيغة الاسم، في سورة الأنعام، آية رقم (96)، وسورة يونس، آية رقم (67)، وسورة النمل، آية رقم (86)، وسورة القصص، الآيتين (72، 73)، وسورة غافر، آية رقم(61).

(65) الكشاف (2/ 38)، والتحرير والتنوير (4/ 391).

(66) جامع البيان (9/ 428)، وتفسير القرآن العظيم (2/ 150).

(67) التحرير والتنوير (4/ 391).

(68) سورة الفرقان، آية رقم (47)، وسورة النبأ، آية رقم (10).

هذا الوصف باللباس والستر الليلي مننٌ كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها[69]. وقد جمع الله – سبحانه – اللباس الحسي والمعنوي في اللباس في آية واحد في قول الله – تعالى –: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ (الأعراف:26)، فذكر لباس الجسَدِ بالثِّيَابِ، ولبَاس المعنى بالتقْوَى[70]. وقد فسَّر قتادة ﷺ اللباس بالسكن؛ فجعلهما بمعنىً واحد عند قول الله – تعالى – : ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴾ (النبأ:10)، قال: سَكَناً[71].

***

## المَبْحَثُ الخَامِس

## الأَعْمَالُ الوَارِد ذِكْرُهَا – فِيْ اللَّيْلِ – فِيْ القُرْآنِ الكَرِيْم

إن طبيعة الأَعْمَالِ والحركة في النَّهار هي أصل العمل والمعاش؛ إلا أن هناك أعمالاً جَاء النصُّ القرآني علَيها مرْتَبِطاً بالليل؛ لحكم وفوائِدَ: إما الترغيبُ أو التَّرْهِيْبُ، أو الوَصفُ أو غَيْرُ ذلك؛ ولعلِّي أذْكُر تِلْك الأَعْمَال علَى النَّحْوِ التَّالِي:

1 – **الصَّلاَةُ**: ومن أعظم الأعمال الوارد ذكرها في الليل في القرآن الصلاة المفروضة، وقد ورد ذكر الصلاة المفروضة بلفظ «الصلاة» ولفظ «التسبيح» كما نصَّ على ذلك كثيرٌ من المفسِّرين. **وهذه الصلاة غير صلاة قيام الليل، وذلك** في مثل قول الله – تعالى –: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (الإسراء:78). وهذه الآية جمعت أوقاتاً أربعة، فالمشترك اللفظي في «دلوك» يحمل ثلاثة معانٍ وقتيَّة، ورابع الأوقات الغسق – كما بين ذلك الطبري[72]، وتبعه ابن عاشور[73]، ويبيِّن النحاس أن صلاتي الدلوك: الظهر والعصر، وصلاتي الغسق: المغرب والعشاء[74]، وأما الصلاة الخامسة في الآية فهي الفجر. وإنما أضيفت صلاة الفجر بعد ذلك بلفظ «قرآن الفجر»؛ لأنه يجهر بالقرآن في صلاة الفجر في جميع ركوعها، ولأن سنتها أن يقرأ بسور من طوال المفصل، فاستماع القرآن للمأمومين أكثر فيها[75]. وقد جمع الله لفظ

(69) ينظر: الكشاف (4/ 207)، والتحرير والتنوير (19/ 45).

(70) تفسير القرآن العظيم (2/ 198).

(71) جامع البيان (24/ 9)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 462)، وهو مرويٌّ عن والسدي، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان.

(72) جامع البيان (15/ 22 – 32)، ومعاني القرآن (4/ 181).

(73) يقول ابن عاشور (15/ 182 – 183): «والدلوك: من أحوال الشمس، فورد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس فرضي في طريق مسيرها اليومي، وورد بمعنى: ميل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس، وهو وقت العصر، وورد بمعنى غروبها؛ فصار لفظ الدلوك مشتركا في المعاني الثلاثة.. وجعل الغسق نهاية للأوقات.. فعلم أن ابتداء الغسق وقت صلاة». اهـ.

(74) معالم التنزيل (5/ 114)، وينظر: جامع البيان (15/ 22 – 32)، ومعاني القرآن (4/ 182).

(75) معاني القرآن (4/ 183)، والكشاف (2/ 462)، والتحرير والتنوير (15/ 182 – 183).

الصلاة مع قيام الليل كذلك في قول الله – تعالى –: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ﴾ (هود:114)، فالطرفان:ظرفان لإقامة الصلاة المفروضة؛ والمقصود: أن تكون الصلاة أول أعمال المسلم إذا أصبح، وهي صلاة الصبح، وآخر أعماله إذا أمسى، وهي صلاة العشاء؛ لتكون السيئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوة بالحسنات الحافة بها[76]. كما جاءت الصلاة بلفظ التسبيح في قول الله – تعالى –: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ (طه:130)، وقول الله – تعالى –: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (ق:39 – 40)، والمراد بالتسبيح: الصلاة، وهو من أسماء الصلاة. كما يقول ابن عطية أن المعنى: صلِّ؛ بإجماعٍ من المتأولين[77]. وهي لصلوات النافلة[78].

2 – **قِيَامُ اللَّيْلِ**: من آكد الأعمال التي ذكرها القرآن الكريم في الليل الآيات التي تحدَّثت عن قيام الليل في مثل قول الله – تعالى – : ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ (آل عمران:113)، فهم يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم[79]. وقول الله – سبحانه –: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (الإسراء:79)، والتهجد كما يعرِّفه المناوي: النوم بالليل والصلاة فيه بعد نوم[80]. وهو التيقظ للصلاة في أثناء الليل[81]. فعن عائشة ﵂ قالت: (كان النبي يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. فقلت له: لِمَ تصنع هذا، يا رسول الله، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟)[82]. وقول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ (الفرقان:64)، يقول البغوي: «يبيتون لربهم بالليل في الصلاة سجدا على وجوههم، وقياما على أقدامهم[83]. وقول الله – سبحانه – : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ (السجدة:16)، ومقصود الآية: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة، وهو قول مجاهد

(76) التحرير والتنوير (12/ 179).

(77) ابن عطية (5/ 168).

(78) تفسير القرآن العظيم (4/ 231)، ومعالم التنزيل (7/ 364 – 365).

(79) تفسير القرآن العظيم (1/ 375)، والتلاوة للقرآن عملٌ ورد ذكره في الليل من خلال هذه الآية وغيرها، وإنما ارتبطت التلاوة بالصلاة والقيام؛ ولذا أدرجته هنا، وإن كان عملاً مقصوداً بذاته في الليل.

(80) التوقيف على مهمات التعاريف ص (67).

(81) جامع البيان (15/ 38)، ومعاني القرآن (4/ 183)، ومعالم التنزيل (5/ 115)، والتحرير والتنوير (15/ 185).

(82) البخاري (4557)، ومسلم (2820).

(83) معالم التنزيل (6/ 94).

والحسن[84]، وقول الله – تعالى –: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر:9). وهو قراءة القارئ قائما في الصلاة[85]. وقول الله – تعالى –: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات:17 – 18). والهجوع: النوم ليلاً[86]. وهو كناية عن طول قيامهم الليل، وقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل:1 – 4). أنزل الله – تعالى – على نبينا – عليه الصلاة والسلام – التلطف به على تزمله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين، فأمره الله بأن يدفع ذلك عنه بقيام الليل[87].

3 – **الذِّكْرُ والتسبيح والاستغفار**: ومن أفضل الأعمال التي أشار إليها القرآن الكريم ملازمة الذكر والتسبيح والاستغفار ليلاً، وقد رفع الله عن الملائكة صفات التعب والضجر والملل من اتصال التسبيح نهاراً، ومواصلته ليلاً لاستيعاب الزمن كلِّه[88]، فقال ﷻ: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ (فصلت:38)، وقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف:206)، وقول الحق ﷻ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء:19 – 20)، وتسبيح الملائكة إنما هو اعتقادٌ وقولٌ وعملٌ لا اعتقادٌ فقط[89]. فكان من أجلِّ أعمالهم وأقوالهم **التسبيح والذكر لله** – تعالى – وقد أخرج مسلم حديثاً عن كيفية تسبيح الملائكة عن أبي ذَرّ ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل: أيّ الكلام أفضل؟ قال: (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده)[90]. ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران:17)، وقول الله – تعالى –: ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات:18)، وهو بمعنى الصلاة[91]، وبمعنى الذكر[92].

وقد تقدم ذكر الصلاة في أول المبحث، وإنما المقصود هنا: الذكر والدعاء بطلب المغفرة، وأَنَّهُمْ أَخَّرُوا الِاسْتِغْفَارَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِلَى السَّحَرِ[93]، والجمع بينهما وارد

(84) معاني القرآن (5/ 304)، ونسبه كذلك لمالك والأوزاعي.

(85) جامع البيان (20/ 176)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 48).

(86) جامع البيان (21/ 508)، ومعالم التنزيل (7/ 373)، والكشاف (4/ 15 – 16)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 234 – 235)، والتحرير والتنوير (26/ 349 – 350).

(87) التحرير والتنوير (29/ 257).

(88) جامع البيان (20/ 437).

(89) جامع البيان (16/ 244).

(90) مسلم (2731).

(91) جامع البيان (21/ 509)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 235).

(92) جامع البيان (21/ 510)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 235).

(93) جامع البيان (21/ 510).

في ابتداء الصلاة، ثم الاستغفار بعد ذلك، كما قال الحسن ﷺ: «مَدُّوا فِي الصَّلَاةِ وَنَشَطُوا، حَتَّى كَانَ الِاسْتِغْفَارُ بِسَحَرٍ»[94]. وهذا الاستغفار من أجلِّ أعمال الليل كما ثبت في الحديث الصحيح عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ يَنْزِلُ الله كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ)[95]. وفي قول الله – تعالى –: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (يوسف:97 – 98)، روى ابن جرير عن ابن وهب في هذه الآية: أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ يَعْقُوبَ حِينَ سَأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ (يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا – قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرَ لَكُمْ رَبِّي) قَالَ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ أَخَّرَ الِاسْتِغْفَارَ إِلَى السَّحَرِ[96].

4 – **الاستِئْذَانُ**: ومن الأعمال الوارد ذكرها في الليل الاستئذان عند دخول البيوت في موضعين من الليل؛ من قبل صلاة الفجر، ومن بعد صلاة العشاء، وذلك في قول الحقِّ ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (النور:58)، فدلت الآية على وجوب الاستئذان قبل صلاة الفجر، ومن بعد صلاة العشاء، وهذا الآداب من الواجب الالتزام بها ليلاً من الأطفال والخدم وغيرهم ممن لا يحسن اطلاعه على عورة؛ إذ إنه من القبيح أن يرى الخدم والأطفال العورات؛ لأن ذلك منظر يخجل منه الخدم، وينطبع في نفس الطفل؛ لأنه لم يعتد رؤيته، ولأنه يجب أن ينشأ الأطفال على ستر العورة حتى يكون ذلك كالسجية فيهم إذا كبروا[97]. وإنما كان هذا الأدب مع الأقربين خاصا بالليل؛ لأن الليل مظنة الستر وأخذ الإنسان كامل راحته؛ والإنسان في الليل يأمن كشف العورة أكثر منه نهاراً، ومن هنا جاء التأكيد على وجوب استئذان الأقربين.

5 – **التفكُّر والتدبُّر**: وقد جعل الله الليل مظنَّةً للتدبر والشكر وذلك في قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ (الفرقان:62). فكل واحد منهما خلفة عن الآخر فيما يعمل فيه من التدبر في أدلة العقيدة والتعبد والتذكر[98]. فقد جعل الله الليل والنهار، يخلف كل واحد

(94) جامع البيان (21/ 510).

(95) البخاري (1145)، ومسلم (758).

(96) جامع البيان (13/ 347)، ومعالم التنزيل (4/ 276 – 277).

(97) تفسير القرآن العظيم (4/ 63)، والتحرير والتنوير (19/ 292).

(98) التحرير والتنوير (19/ 65).

منهما الآخر حجة وآية لمن أراد أن يذكر أمر الله، فينيب إلى الحق ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أو أراد شكر نعمة الله التي أنعمها عليه في اختلاف الليل والنهار، هذا من جهة التفكُّر، وأما من جهة الشكر، فالقيام بحقوق العبودية أبرز أدلتها من خلال التطبيق العملي لهذه الآية من النبي – عليه الصلاة والسلام –: (كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه. فقالت له عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنع هذا، يا رسول الله، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟)[99]. وقد جمع النبي – عليه الصلاة والسلام – كذلك عبادتي التفكر والعمل ليلاً كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بِتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:190) ثم قام فتوضأ واستن، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال، فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى الصبح»[100]. وشاهد هذا الحديث ما في الآيات الكريمة الواردة في الحديث والتي تحث على التفكر والعبادة الليلية في قول الله – تعالى –: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 190 – 191). وتطبيق ذلك عمليا من النبي – عليه الصلاة والسلام – على كل الحالات التي ذكرتها الآية الكريمة، وقد كان رسول الله – عليه الصلاة والسلام – يتحنث الليالي ذوات العدد في غار حراء[101]. يتبيَّن من خلال ذلك أن التفكر عبادةٌ ليليةٌ لمن أراد أن يذكر، أو أراد شكورا.

6 – **الدعوة إلى الله**: ومن الأعمال الوارد ذكرها في الليل؛ الدعوة إلى الله إما ابتداءً أو متصلاً من النهار، ومن هنا قال نوح – عليه الصلاة والسلام –: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (نوح:5)، وذكر الدعوة إلى الله – تعالى – في الليل إنما جاء بقصد التنوُّع في الدعوة بين أوقات العمل وأوقات السكون، واستمرارية الدعوة على كل حال، وهذا ما يؤكده ابن عاشور بقوله: «وجعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره، من أوقات النشاط، وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال، وهي أوقات الليل»[102].

7 – **النفقة والصدقة**: ومن آكد الأعمال التي

(99) البخاري (4557)، ومسلم (2820).

(100) البخاري (7014)، ومسلم (763).

(101) مسلم برقم (252).

(102) التحرير والتنوير (29/ 194).

ذكرها القرآن الكريم في الليل: الصدقة والنفقة، كما يقول الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (البقرة:274)، فاستوت جميع الحالات من الليل والنهار والسر والعلانية، مع أن مظنة الليل السر، ومظنة النهار العلانية، وكل منهما يدل على الآخر، إلا أن القرآن الكريم أثنى على المنفقين في جميع الحالات، وتأكيداً على أن صدقة الليل الأصل أن تكون سراً، ومنها ما يكون جهراً، وكذلك صدقة النهار مظنتها أن تكون جهرا، ولكن قد تأتي سراً، فالمقصود المرتَّبُ عليه الثواب قَصْدُ الْمُنْفِقِ في نفقَتِهِ. وقد استنبط الألوسي من تقديم الليل في الآية خاصة إلى أن ذلك إيذان بتفضيل صدقة السر، وأن لكل وقت حكمة، ولكل حال حكمها[103]؛ إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها[104]، ومن هنا فإن الصدقة إذا اجتمع فيها السر وظلمة الليل فإن ذلك أدعى للقبول، فالليل ستر واتخاذ المتصدِّق السر كذلك فيها فإنه موجب للتجرد والإخلاص، وأوصل في الصدَقةِ إلى محلِّها؛ بخلاف النهار والعلانية فإنهما أدعى لرؤية الناس، وأخوفُ على قلب المتَصَدِّقِ.

8 – **الجِمَاعُ**: ومن الأعمال الليلية التي ورد ذكرها في القرآن الجماع والوطء والمعاشرة للزوجات، وقد جاءت الإشارة إلى الوطء؛ لرفع توهم الحرج عن الصائمين في معاشرة نسائهم ليلاً إذا غلب أحدهم النوم قبل المعاشرة[105]. وهي المذكورة في قول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:187)، ولفظ الرفث، كنايةٌ عن الجماع[106]. وذلك أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان، لئلا يشق ذلك عليهم، ويحرجوا[107]، وقد تكرر في الآية ذكر المعاشرة بين الزوجين بين الإباحة والندب والتحريم.

9 – **النوم**: ومن أعمال الليل التي ورد ذكرها في القرآن النوم، وهو موضع النوم أصلاً، كما امتن الله

(103) روح المعاني (3/ 77 – 78).

(104) ينظر: جامع البيان (5/ 33)، ومعالم التنزيل (1/ 336)، وتفسير القرآن العظيم (1/ 308).

(105) روح المعاني (2/ 97)، والتحرير والتنوير (2/ 181).

(106) الكشاف (1/ 337)، وتفسير القرآن العظيم (1/ 209)، وروح المعاني (2/ 97).

(107) تفسير القرآن العظيم (1/ 209).

–تعالى–بذلك على عباده، وهو امتنان خاصٌ بالآدميين[108]، فقال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان:47). وقد جعل الله النوم راحة تستريح به الأبدان، وتهدأ به الجوارح[109]. والسُّبات: ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرضا، فشبه النوم به[110]؛ فبالسُّبَاتِ تأتي الراحة من تعب العمل بالنهار؛ لأن النوم يقطع العمل النهاري، فينقطع به التعب، وتحصل الاستراحة[111]، كأنهم أمواتٌ لا يشعرون، وأحياءٌ لم تفارقهم الأرواح[112]، وتقديم الاعتبار بحالة ستر الليل على الاعتبار بحالة النوم لرعي مناسبة الليل بالظل، بخلاف قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ (النبأ:9 – 10)، في سورة النبأ، فإن نعمة النوم أهم من نعمة الستر، ولأن المناسبة بين نعمة خلق الأزواج وبين النوم أشد[113]. وهو استنباط بديع.

10 – **المَوْتُ**: من الأعمال التي ورد ذكرها في الليل في القرآن الكريم، قبض الأرواح ليلاً، وهو من أعمال الملائكة – شرفهم الله – والليل يستوي فيه جميع العالم بمن يغشاه الليل أو النهار مكاناً أو زمناً من العوالم الثلاثة الملائكة والإنس والجن؛ فإذا كان الليل مظنة النوم، وهو الموتة الصغرى، فإن النوم كذلك مظنة الموت، وهو الموتة الكبرى، كما قال الله – تعالى –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:60). والتوفي حقيقته الإماتة، لأنه حقيقة في قبض الشيء مستوفى. وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقطاع الإدراك والعمل[114]؛ فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى. وفي الآية الأخرى ذكر – تعالى – الوفاة الكبرى، ثم الصغرى في قول الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر:42)، وهو تشبيه نحي به منحى التنبيه إلى حقيقة علمية؛ فإن حالة النوم حالة انقطاع أهم فوائد الحياة عن الجسد، وهي الإدراك سوى أن أعضاءه الرئيسية لم تفقد صلاحيتها للعودة إلى أعمالها حين الهبوب من النوم.. وإطلاق لفظ الإمساك على بقاء حالة الموت تمثيل لدوام تلك الحالة[115]. وقد أشار الطبري إلى اجتماع الأرواح

(108) التحرير والتنوير (30/ 18)، وقد أشار إلى هذه الخصوصية ابن عاشور للفظ الخطاب القرآني: «نومكم».

(109) جامع البيان (17/ 466).

(110) روح المعاني (19/ 43).

(111) روح المعاني (19/ 43).

(112) ينظر:جامع البيان (17/ 466)، وروح المعاني (19/ 43).

(113) روح المعاني (30/ 12 – 13)، والتحرير والتنوير (19/ 145).

(114) جامع البيان (9/ 284)، ومعاني القرآن (6/ 179)، والكشاف (7/ 275)، وروح المعاني (30/ 11).

(115) التحرير والتنوير (24/ 24).

وقبضها في الملأ الأعلى إنْ بالوفاة الصغرى بالنوم، أو الكبرى بالموت[116]، مستدِّلا بحديث النبي ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[117]. وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين: أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فيتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده، وحبسها، وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مسمى، وذلك إلى انقضاء مدة حياتها[118].

11 – **الإسْرَاءُ وَالسُّرَى لَيْلاً**: ومن الأعمال التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ليلا الإسْرَاءُ، والسُّرَى بالليل[119]. وارتبط الإسراءُ بالتشريف الذي حصل للنبي الكريم – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – في قول الله – تعالى –: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء:1)، لذا كانت ليلة الإسراء والمعراج بالنبي ﷺ من أعظم الأعمال التي وردت ليلاً على مرِّ الزمن لأهل الأرض وأهل السماء، ففيها شرَّف الله نبيه – عليه الصلاة والسلام – وشرَّف أمته، وأراه شيئاً من عالم الغيب من الجنة والنار، وعالم الملائكة، وإخوانه من الرسل والأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وغير ذلك، وشيئا من عالم الأرض ومثله من عالم السماء، كما ورد ذلك عنه ﷺ في حديث الإسراء والمعراج[120]. كما تعلَّق السُّرى بالأمن عند قوم سبأ، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبأ:18)، وقد أمر الله – تعالى – لوطا – عليه الصلاة والسلام – أن يسري بأهله ليلاً خوفاً أن يدركهُ عذاب الليل الواقع على قومه؛ في آيتين هما: قول الله – تعالى –: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (هود:81)، وقول الله – تعالى –: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ

(116) جامع البيان (20/ 215)، ومعاني القرآن (6/ 178).

(117) البخاري (6320)، ومسلم (2714).

(118) جامع البيان (20/ 215)، ومعاني القرآن (6/ 178)، ومعالم التنزيل (7/ 122).

(119) وهما لغتان صحيحتان وردتا في القرآن الكريم في السير ليلاً كما يقول لسان العرب (14/ 381): وَالسُّرَى: سَيْرُ اللَّيْلِ عَامَّتُهُ، ويقال: أَسْرَيْتُ وَسَرَيْتُ إِذَا سِرْتُ لَيْلًا. وينظر: الفيروزآبادي ص (1669).

(120) البخاري (3035)، ومسلم (2375).

أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (الحجر:65)، وجاء الأمر من الله ﷻ لموسى أن يسير بمن معه من المؤمنين ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ (الدخان:23)، لئلا يدركهم فرعون وجنوده، وسير الليل في الغالب إنما يكون عن الخوف.عليه فقد تنوع السُّرى بالليل بين التشريف كما في آية الإسراء بالنبي ﷺ ليلاً؛ وبين النجاة من محل العذاب وموطنه كما في قصة لوط – عليه الصلاة والسلام –، والنجاة من لحاق العدو بهم كما في قصة موسى – عليه الصلاة والسلام – ومظنة السير ليلا أن يكون محفوفاً بالخوف من جهتين؛ إما الظلمة ذاتها، وإما توقع ما يحصل من أحداث.

12 – **التَّخَفِّي والتَّوَاري**: ومن الأعمال الليلية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، التَّخَفِّي والتَّوَاري عن الأنظار، والهرب من الطَّلَبِ، ومن هنا قال الله – تعالى – : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ (الرعد:9 – 10)، أَيْ: وإن كان عمله إذا اسود جنح الليل مختفيا في قعر بيته في ظلام الليل متواريا عن الأعين، فإن الله – تعالى – عالم به[121]. كما يؤكد ذلك الشوكاني بقوله: «وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب؛ فالمستخفي المستتر، والسارب البارز الظاهر»[122]. والعامل في هذا – كما يقول ابن عباس ﷺ: «هُوَ صَاحِبُ رِيبَةٍ، مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ، فَإِذَا خَرَجَ بِالنَّهَارِ أَرَى النَّاسَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْإِثْمِ»[123]. وقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (النساء:108)، فعملهم في الليل ظاهر من لفظ التبييت. والبيات – كما سبق – لا يكون إلا ليلاً، يقول ابن كثير: «وهذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس؛ لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها؛ لأنه مطلع على سرائرهم، وعالم بما في ضمائرهم»[124].

13 – **المَكْرُ**: وكما ذكر الله – تعالى – أعمال الليل للصالحين من الصلاة والقيام والتلاوة والنفقة وغيرها؛ فإن الله – تعالى – ذكر أعمال أهل الشر قولاً وفِعْلاً في المكر والمكيدة وتدبيرهما في الليل كما قال – تعالى –: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ (سبأ:33)،

(121) جامع البيان (13/ 453)، ومعاني القرآن (3/ 476)، ومعالم التنزيل (4/ 299)، وفتح القدير (3/ 78).

(122) فتح القدير (3/ 78).

(123) جامع البيان (13/ 454)، ومعالم التنزيل (4/ 299)، كما يقول الضحاك عن المتخفِّي: «راكب رأسه من المعاصي»، أخرجه الطبري في جامع البيان (13/ 455).

(124) تفسير القرآن العظيم (1/ 523).

والمراد به: مواصلة مكرهم ليلا ونهارا، وأصل المكر في الليل كما قال – تعالى – : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:48 – 50)[125]، وتبييتهم إنما كان ليلاً – كما بينت ذلك مسبقاً – ، كما ذكر الله – تعالى – عن تبييت المنافقين ليلاً ما لا يرضاه الله – تعالى – فقال ﷻ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (النساء:108).

14 – **العذاب**: ومن الأعمال التي ورد ذكرها في الليل أعمال العذاب الموكَّل بها الملائكة؛ كما قال الله – تعالى –: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ (القلم:20)، أي: عذاب من ربك، والطائف لا يكون إلا ليلا[126]، وقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ (الأعراف:4)، وقول الله – تبارك وتعالى –: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ (الأعراف:97)، وقول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس:50)، فجاءتهم العقوبة والنقمة ليلاً قبل أن يصبحوا[127]. والبيات – كما يقول الزجاج –: كل من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينم[128]. وإطلاق البيات على الليل بسبب أن الإنسان في الليل يكون ظاهرا في البيت، فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل، وفي هذا كله تحذير لمن خالف أمر الله أن يأتيه عذاب الله ليلاً سواءً أكان نائماً أو يقظاً[129]. والأصل في العذاب المباغتة؛ والليل مكان ومظنة للراحة والأمن فيه؛ فكانت المباغتة فيه أشد وقعاً وأثراً؛ ولما كانت المعاصي إنما ترتكب ليلاً للأمن من اطلاع الناس؛ ناسب أن يأتيهم العذاب ليلاً من جهة أمنهم من مكر الله.

* * *

## المبحث السادس

## الأوصاف والأعمال الوارد ذكرها في ليلة القدر في القرآن الكريم

شرف ليلة القدر على ليالي السنة أوضحه القرآن

(125) قد روى جامع البيان (12/ 92) عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: قَالَ التِّسْعَةُ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ : هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ صَالِحًا، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا – يَعْنِي فِيمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بَعْدَ الثَّلَاثِ – عَجَّلْنَاهُ قَبْلَهُ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا نَكُونُ قَدْ أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ، فَأَتَوْهُ لَيْلًا لِيُبَيِّتُوهُ فِي أَهْلِهِ، فَدَمَغَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْحِجَارَةِ؛ فَلَمَّا أبطؤوا عَلَى أَصْحَابِهِمْ أَتَوْا مَنْزِلَ صَالِحٍ، فَوَجَدُوهُمْ مَشْدُوخَيْنِ قَدْ رُضِخُوا بِالْحِجَارَةِ.

(126) جامع البيان (23/ 173)، ومعالم التنزيل (8/ 195)، ومحاسن التأويل (16/ 258).

(127) جامع البيان (12/ 190)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 406)، والتفسير الكبير (14/ 19).

(128) لسان العرب (2/ 16).

(129) التفسير الكبير (14/ 151).

الكريم، وأفرد في القدر وليلته سورة كاملة، وهي سورة القدر، فيما اختصَّت تلك الليلة بورود صفاتٍ وأعمالٍ ليست مجتمعة في غيرها من الليالي، ومن ذلك ما يتعلَّق بوصْفَي لَيْلَة القدر بالآتي:

1 – **البَرَكَةُ**: وهذا الوصف بالبركة، وكثرة الخَيْرِ فِيْهَا[130]. أَخْذاً مِنْ قول الله – تبارك وتعالَى –: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان 1 – 3)، والبركة ههنا هي: النماءُ والزيَادة[131]. وصفها بأنها مباركة لما يعطي الله فيها من المنازل، ويغفر من الخطايا، ويقسم من الحظوظ، ويبث من الرحمة، وينيل من الخير، وهي حقيقة ذلك، وتفسير البركة.

2 – **السَّلاَمُ**: وهذا الوصف لليلةِ القَدْرِ وردَ في قول الحق ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ (القدر: 1 – 5).

ووصْفُها بالسَّلامِ ذَكَرَ فِيْهِ المفَسِّرُوْنَ عدَّة مَعَانٍ من أَهمِّهَا:

أ/ السلاَمة فيها من الآفات[132].

ب/ كثرَةُ السَّلاَمِ، وإلقاءُ التَّحِيَّة فيها بين المَلائكة والمؤمنين[133].

ج/ أن الشيطان لا يستطيع أن يصنع فيها شيئاً[134].

وحمْلُ الآية فِي وصف هذه الليلة على الأمْنِ المُطْلَق من كُلِّ سوءٍ أَقْرَبُ في عموم وَصْفِ اللَّيْلَةِ بِالسَّلاَمِ.

وفي إفراد ليلة القدر بوصفين – : البركة، والسلام – ما يوحي؛ بأن إدراك هذه الليلة هي فرصة العام والعمر، فإدراك وَصْفَيْها؛ السَّلاَم والبركة خيرٌ من ثلاث وثمانين سنة.

كما ذكر القرآن الكريم عدَّة أَعْمَالٍ جرى وقوعها في ليلة القدر، وأخرى يختص وقعها في الليلة ذاتها من العام، ومن الأعمال الوارد ذكرها في ليلة القدر في القرآن ما يأتي:

1 – **نُزُوْلُ القُرْآنِ**: أعظمُ الأعمال التي ورد ذكرها في القرآن الكَرِيْمِ في الليل أَنْ أَنزلَ الله – تعالى – القرآن الكَرِيْم فِي الليل؛ بل في لَيْلَةٍ واحدَةٍ؛ كما قال – تبارك وتعالى –: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان 1 – 3)، وقول الله ﷻ:

(130) جامع البيان (21/ 8 – 9)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 534).

(131) لسان العرب (10/ 395).

(132) ينظر: وجوه القرآن الكريم ص (178)، وجامع البيان (24/ 547 – 549).

(133) جامع البيان (24/ 547 – 549)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 534).

(134) تفسير القرآن العظيم (4/ 534).

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ (القدر:1)، فكانت هَذِه الليلة أفضل الليالي على الإطلاق، ونزول الوحي القرآني بكامله ليلاً إلى السماء الدنيا بنصِّ الآية الكريمة دليلٌ قطعي الثبوت والدلالة[135]. كما قال ابن عبَّاس ﷺ: «أنزل القرآن في ليلة القدر إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل به جبرائيل في عشرين سنة»[136]. وإنما جاء بعد ذلك مفرَّقا ومنجما حسب الوقائع والأحداث، كما قال الله – تبارك وتعالى –: ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ (الإسراء:106)، وقول الله – تعالى –: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ (الفرقان:32)، ومن القرآن ما نزل بالليل، ومنه ما نزل بالنهار، بل إن الكتب السماوية نزلت في ليالي رمضان كما أخبر النبي – عليه الصلاة والسلام – فعن واثلة، عن النبي ﷺ قال: (نزلت صُحُف إبراهيم أَوَّلَ ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التوراةُ لست مَضَين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاثَ عَشرة خَلت، وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان)[137].

2 – **تَصْرِيْفُ أُمُوْرِ المَخْلُوْقَاتِ**: ومن الأعمال الوراد ذكرها في الليل في القرآن الكريم تصريف أمور الخلق؛ كما قال – تبارك وتعالى –: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ (الدخان:3 – 4)، وهذه الليلة – ليلة القدر – كما يقول الطبري: وهي ليلة الحُكْمِ التي يقضي الله فيها قضاء السنة[138]؛ ففيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق، ومن يموت، ومن يولد، ومن يعز، ومن يذل، وسائر أمور العام[139].

3 – **نزول الملائكة**: ومن الأعمال الوارد ذكرها في الليل في القرآن الكريم: تنزل الملائكة في ليلة القدر، كما قال الله – تبارك وتعالى –: ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ (القدر:3 – 4)، فتنزل الملائكة فيها ومنهم جبريل عليه السلام، فيكثر نزول الملائكة فيها أكثر من غيرها لكثرة بركتها[140]. والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له[141]. ومن السُّنة حديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِّ ﷺ قَالَ: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي

(135) جامع البيان (24/ 542)، ومعاني القرآن (6/ 395 – 396)، ومعالم التنزيل (8/ 485)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 532).

(136) معاني القرآن (6/ 395)، ثم قال النحاس: وهذا إسناد لا يدفع.

(137) أحمد (17025) وصححه أحمد شاكر، وحسَّنه الألباني برقم (1575) السلسلة الصحيحة.

(138) جامع البيان (24/ 542).

(139) المرجع السابق (21/ 9)، وتفسير القرآن العظيم (4/ 140).

(140) جامع البيان (24/ 547)، ومعاني القرآن (6/ 396 – 397)، ومعالم التنزيل (8/ 491).

(141) تفسير القرآن العظيم.

صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ – وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ – كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)[142].

***

**الخاتمة وأهم النتائج**

بحمد الله – تعالى – أوضحت الدراسة مفهوم الليل ومدلولاته، وجاءت كاشفة لأعمال الليل بين ما أوجب الله – تعالى – وما ندب إليه وما أباحه، وبين ما هو متعلقٌ بالكون والقدر، وقد أفادت الدراسة النتائج التالية:

1 – أن الليل ذو ارتباط وثيق بالكون، كونه من آيات الله، وارتباط ضوئه بالقمر، وهو من مخلوقات الله؛ فدلالته وهدايته إلى الخالق مثل هداية أجزائه، كالنجوم التي يهتدي بها الساري؛ فإن الليل والقمر بخلقهما يدلان على الباري، سبحانه.

2 – أن مفهوم الليل منوط بالزمن بين غروب الشمس وشروقها، وأن ذلك الزمن قابل للأعمال والأحداث الكونية والشرعِيَّة.

3 – أنَّ الشريعة أحاطت الليل بمفاهيم الاستمرارية التعبُّدِيَّة، والبعد عن الرياء، والمحافظة على العبادة آناء الليل بأنواع من العبادات.

4 – أنَّ دراسة أوصاف الليل وتتبعها في القرآن الكريم قد أفادت معاني عظيمة كالسكن واللباس والسلام والبركة، وأن تتبعَ هذه الصفات – بحسب ورودها – أفاد ارتباطها الوثيق بأوصاف الليل.

5 – أن الأعمال الوارد ذكرها في القرآن الكريم تنوَّعت بين ما خصَّ الله به الليل من أعمالٍ بعينها؛ مثل نزول القرآن، والتقدير الحَوْلِيَّ في ليلة القدر، ونزول الملائكة في تلك الليلة بكثرة، والنزول الإلهي للسماء الدنيا، وبين ما نَدَبَ الله – تعالى – العباد إليه من أعمالٍ؛ كالصلاة، وقيام الليل، والذكر والتسبيح والاستغفار والتفكر والصدقة وغيرها.

6 – أن الله – تعالى – قد شرَّف بعض عباده وأنبيائه – عليهم الصلاة والسلام – بكرامات ليلية؛ كالإسراء والمعراج بنبيِّنا، وسيِّدنا محمد – عليه أفضل الصلاة. وأتم التسليم – والسُّرى ليلاً لنبيِّ الله موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين لحكمة أرادها الله، وكذلك السُّرى بنبي الله لوط عليه السلام ومن آمن من أهله للنجاة من العذاب النازل على قومه.

7 – أن الدعوة إلى الله – تعالى – يستوى فيها الزمن ليلاً أو نهاراً؛ فقد يفتح الله على بعض القلوب ليلاً؛ لهدأة القلب وسكون الليل.

8 – أن التأكيد على التزام الآداب في الليل أكثر منه نهاراً؛ إذ إن الليل مظنةٌ لأمن كشف العورات؛

(142) مسلم (632).

ولأجله شُرع الاستئذان ليلاً، ومثله بقية الآداب في التأكيد عليها.

9 – التأكيد على أثر وجود القائمين والصائمين والمُنْفِقِيْن والمستغفرين، وأن بمثْلِ هؤلاء يدفع الله عذاب الليل، فما كان الله معذباً قوماً، وهم يستغفرون.

10 – بيَّنت الدراسة حركة الليل من لحظة دخوله حتى خروجه من خلال تتبع ألفاظ القرآن الكريم المتعلِّقة بالليل، فيما كانت هذه الألفاظ تحمل معاني إيمانية لكلِّ حركة من الليل من أوَّله وأوسطه وآخرِه، وأن هذه الانسيابية في الانتقال بين فترات الليل هي من آناء الليل التي ندب القرآن إلى التنوُّع في العبادة فيها، وقد أوتر النبي ﷺ من كلِّ الليل: أوله وأوسطه وآخره[143].

11 – أظهرت الدراسة أجزاء الليل المقصودة بالقيام، بين ناشئة الليل وعامته، والثلثين، والنصف، والثلث، وهي ضمن تقدير الله ﷻ لليل والنهار، وتقدير العاملين فيهما من حيث القيام بأمر الله – تعالى – أو عدمه، وكذلك المواظبة على نوعٍ معين من التعبد إما طوْلاً وإمَّا قِصَراً، وذلك راجعٌ للعابدِ نفسِهِ.

12 – كشفت الدراسة عن قيمة الليالي المعدودة في القرآن الكريم، كما أوضحت تفضيل بعض الليالي على كثيرٍ من النهار كليلةِ القَدْر، وأن بعض الليالي المعدودة كالعشر ليال في شريعة الله – تعالى – لمحمدٍ – عليه الصلاة والسلام – والعشر المتممة لميقات موسى عليه السلام متفقةٌ في الزمن للتأكيد على فضيلتها.

**التوصيات:**

وبعد أن فرغت من البحث والدراسة، بتوفيق من الله، تعالى – وله الحمد والمنَّة – في موضوع الليل في القرآن الكريم؛ فإني أوصي الباحثين بالآتي:

1 – الوصية بتقوى الله تعالى، وتطبيق ما ورد في الدراسة من المندوبات والواجبات الليلية، والاستفادة من ذلك بطريق الحرص على السر والخفية والبعد عن الرياء، وتنوُّع الأعمال في الليل.

2 – بحث كل الألفاظ القرآنية المتعلقة بالليل، فيما ذكره المفسِّرون أنه يكون ليلاً.

3 – إبراز الصور البيانية والبلاغية فيما يتعلَّق بلفظ الليل في القرآن الكريم.

4 – تطبيق الدراسة على أجزاء الليل والنهار، ودراسة ما تعلَّق بهما؛ كلُّ دراسة على نحو خاص ومستقل، بحيث يؤدي كل بحث فائدته المرجوة، وإبراز ذلك بشكلٍ مفصَّلٍ.

5 – إبراز الدراسات التربوية والنفسية لليل، والاستفادة من الألفاظ والآيات القرآنية المتعلِّقة بذلك.

6 – عمل الدراسات القرآنية في تتبع معاني

(143) مسلم (74).

الألفاظ والجمع والتحليل فيما بينها، كلفظ: الليل، واللباس، والسكن، ومثل لفظ اللباس في: الليل والثوب والمرأة والدرع، وهكذا.

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

## قائمة المصادر والمراجع


**التحرير والتنوير**. ابن عاشور، محمد الطاهر. د.ط، تونس: دار سحنون، د.ت.

**تفسير القران العظيم**. ابن كثير، إسماعيل بن كثير. ط1، القاهرة: دار الحديث، 1408هـ.

**تفسير القران العظيم**. ابن كثير، إسماعيل بن كثير. ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1420هـ.

**التوقيف على مهمات التعاريف**. المناوي، محمد عبد الرؤوف. ط1، بيروت: دار الفكر المعاصر، د.ت.

**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. السعدي، عبدالرحمن ابن ناصر. د.ط، جدة: دار المدني، 1408هـ.

**جامع البيان عن تأويل آي القران**. الطبري، محمد بن جرير. تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ومركز البحوث والدراسات بدار هجر. ط1، القاهرة: دار هجر، 1422هـ.

**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. الألوسي، محمود بن عبدالله. صححه: محمد حسين أيوب. د.ط، بيروت: دار الفكر، 1417هـ.

**سلسلة الأحاديث الصحيحة**. الألباني، محمد ناصر الدين. ط1، الرياض: مكتبة المعارف، 1412هـ.

**السنن الكبرى**. النسائي، أحمد بن شعيب. تحقيق: حسن شلبي. ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421هـ.

**السنن الكبرى**. النسائي، أحمد بن شعيب. ط2، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1409هـ.

**صحيح البخاري**. البخاري، محمد بن إسماعيل. ط3، بيروت: دار ابن كثير، 1407هـ.

**صحيح مسلم**. مسلم، ابن الحجاج النيسابوري. وبهامشه: شرح يحيى بن شرف النووي. ط1، دمشق: دار الخير، 1414هـ.

**فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. الشوكاني، محمد بن علي. ط1، بيروت: دار الخير، 1413هـ.

**الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنَّة وآي القرآن**. القرطبي، محمد بن أحمد. ط2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ.

**القاموس المحيط**. الفيروزآبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب. ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1413هـ.

**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. الزمخشري، محمود بن عمر. د.ط، بيروت: دار الفكر، د.ت.

**لسان العرب**. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. ط1، بيروت: دار صادر، 1410هـ.

**محاسن التأويل**. القاسمي، محمد جمال الدين. ط2، بيروت: دار الفكر، 1398هـ.

**مختار الصحاح**. الرازي، محمد بن أبي بكر. د.ط، بيروت: مكتبة لبنان، 1989م.

**مسند أبي داود الطيالسي**. الطيالسي، سليمان بن داود. تحقيق: محمد

ابـــن عبدالمحـــسن التركـــي. ط1، مـــصر: دار هجـــر، 1419هـ.

**مسند الإمام أحمد بن حنبل**. ابن حنبـل، أحمـد بـن محمـد. تحقيـق: شـعيب الأرنـاؤوط، وآخـرون. ط1، بـيروت: مؤسـسة الرسالة، 1421هـ.

**مسند الإمام أحمد بن حنبـل**. ابـن حنبـل، أحمـد بـن محمـد. د.ط، القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت.

**مشكاة المصابيح**. الخطيب، محمد بـن عبـدالله الخطيـب التبريـزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط3، بـيروت: المكتـب الإسلامي، 1405هـ.

**معالم التنزيل**. البغوي، الحسين بن مـسعود. تحقيـق: محمـد النمـر، وآخرون. ط2، الرياض: دار طيبه، 1414هـ.

**معاني القران الكريم**. النحاس، أحمد بن محمد. تحقيـق: محمـد عـلي الصابوني. ط1، 1410هـ.

**وجوه القرآن الكريم**. الحيري، إسماعيل. تحقيـق: فاطمـة الخيمـي. ط1، دمشق: دار السقا، 1996م.

***